ان يموت كما يشاء ؟ الموت هو البطاقة التي يقدم بها وطني نفسه الى العالم . فاتخذ لك موقفا من الموت الاختياري . ان مجموعة « العصافير تموت في الجليل » غارقة في التعامل مع الموت الذي ليس موتا في جوهره »(٣٩).

شهدت هذه المرحلة تطورا جديدا في مفهوم محمود درويش للشعر الملتزم ، اذ اصبحت رسالة الشاعر أقرب ما تكون الى الكشف حيث أصبح الشعر رؤيا للمستقبل . يقول : « وسنعرف الان ان الشعر هو رؤية ثورية للحاضر ورؤيا للمستقبل . ولماذا نكتب ؟ لاننا جديرون بانتمائنا الى الحياة ومحتاجون الى الاحساس الدائم بهذه الجدارة »(٤٠). هذا، على ما أرى ، هو التفهم الصحيح لمدلول الالتزام في الشعر ، حيث لا يعود الشعر الملتزم صورة فوتوغرافية للواقع بل كشفا للمستقبل ، فيصبح الشاعر نبي الثورة التي ستخلق الغد الافضل . من هنا جاء هذا الديوان بداية تحول واضح في مسيرة محمود درويش الشعرية ، فقد تخلص الشاعر نهائيا من القصائد العمودية ، واستطاع — الى حد كبير — ان يتخلص من الخطابية والمباشرة اللذين طبعا دواوينه الاولى ، واكتسبت صوره الشعرية دلالات رمزية تخطى فيها جميع مجموعاته الشعرية السابقة؛ يقول مثلا:

في الحلم ، ينضم الخيال اليك ،
يرتد المغني
عن كل نافذة . ويرتفع الاصيل
عن جسمك المحروق بالاغلال
والشهوات والزمن البخيل
نامي على حلمي . مذاقك لاذع .
عيناك ضائعتان في صمتي
وجسمك حائل بالصيف والموت الجميل .
في آخر الدنيا اضمك
حين تبتعدين ملء المستحيل(٤١).

ثم كانت المرحلة الثالثة من مراحل مسيرة محمود درويش الشعرية ، التي شهدت تجربته الكبرى بخروجه نهائيا من فلسطين المحتلة ولجوئه الى مصر ، في شباط عام ١٩٧١ . ولا يصح الاعتبار ان تجربة محمود درويش الشعرية تساوت مع تجارب غيره من الشعراء العرب بعد خروجه من فلسطين المحتلة ، لانه اصبح ، مثلهم ، ينظر الى القضية من الخارج . ذلك ان خروج محمود درويش من فلسطين ، في رأيي ، لم يمح تجاربه التي عاشها في ظل الاحتلال ، بل ان تلك التجارب قد اتسعت الان لتشتمل على نظرة جديدة لا تلغي الاولى بل تغنيها . وهذا ما قصد اليه محمود درويش في مؤتمره الصحفي الذي عقده بعد يومين من وصوله الى القاهرة ، حين قال : « ولست اول مواطن او شاعر يبتعد عن بلاده ليقترب منها »(٤٢).

وقد اغتنت تجربة محمود درويش النضالية بعد سنة عاشها في العالم العربي ، اكتشف خلالها سر الهزائم العربية ، عندما كشف احتكاكه بالواقع المهترىء ، ستار التمويه الذي فرضه هذا الواقع حول نفسه . يقول محمود درويش : « عندما كنت في اسرائيل كان صعبا علي ان افهم بشكل مباشر سر الهزائم العربية لان خيالي كان يتعامل مع ارقام كبيرة . مع واحد وعلى يمينه ثمانية اصفار . وهذا التعامل مع الارقام كان يبعدني عن حقيقة مضمون هذا الرقم الكبير . كنت مقتنعا بأن المعركة في الشرق الاوسط هي معركة بين قوى التحرر وبين قوى أجنبية ومحلية تعيق هذا التحرر . لا زال هذا التحديد صحيحا ، ولكن في الاطار الواسع للكلمة . ان حركة التحرر تعترضها معارك داخلية أشد خطورة . انها مليئة بالمناهج القبلية المغرقة في التخلف الفكري والسياسي . لم تتخذ حركة التحرر مسارا واحدا ، وربما يتضح لنا بعد قليل ان الكثير من فرضياتنا